مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 3 السنة: 2021
ص: 1060 - 1080 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

التأليف النحوي في القرن السابع الهجري بين قواعد التحديد وضوابط التأييد

Syntactic Composition in the Seventh Century AH Between the Determining Rules and the Confirmation Controls

سمير بوعبد الله *

Samir Bouabdallah

جامعة عبد الرحمن ميرة – بجاية / الجزائر

University of Abderrahmane Meera - Bejaia / Algeria

abouabdillahsamir@gmail.com

تاريخ الإرسال:2020/11/08	تاريخ القبول:2021/05/17	تاريخ النشر : 2021/09/02

ملخص البحث

لقد سجل القرن السابع الهجري تناقضات شتى، إذ رغم كثرة الفتن والحروب والبدع والطرق الصوفية، وانحسار العلم في فئة من المجتمع، إلا أن جذوة العلم لم تخب، ولم تفقد التميز بمؤلفات كبيرة، وعقول منيرة أنارت بإشعاعها دروبا مظلمة؛ وأقامت بفطنتها مدارس وجوامع ومراكز تعليم عظيمة، جسده أكثر سعي علمائنا الحثيث إلى تخزين القواعد النحوية ضمن متون وأراجيز باعتبارها أيسر الطرق في الحفظ والتداول جيلا بعد جيل.

الكلمات المفتاح: علم، جوامع، قواعد نحوية، مصنفات، متون، مدارس، مؤلفات.

Abstract

The 7th century AH recorded various contradictions, despite the many seditions, wars, heresies and Sufi methods, and the decline of science in a category of society, However, the science has not been hidden, nor has it lost excellence in great writings, and enlightened minds that have illuminated dark paths; they have established with their acumen great schools, mosques and teaching centres,His body is the most sought by our scientists to store grammar within the (moutouns) and (aragys) as the easiest way to save and trade generation after generation.

توطئة

* سمير بوعبدالله. samirbouabdalah@gmail.com

لا يخفى على قارئ ذي بصيرة ما خلّفه علماؤنا الأجلاء، من تراث ضخم أحاط بكل فرع من فروع المعرفة اللسانية، تحذوه في ذلك شجرة اللغة العربية . لسان حال هذه الأمة . وقد زادها شرفا وقداسة نزول القرآن بها ومخاطبته العرب والعجم بألفاظها وتراكيبها وأساليبها.

وحتى يُمكّن لهذه اللغة في الأرض ولا تنحرف عن أصولها، فزع رجال الأمة من خيرة السلف؛ يرفعون قواعدها ويشيدون صرحها، وقد قيّض الله لها من يخدمها ويُطيل في بقائها، حتى صارت تُلفظ على ألسنة الخلق في مشارق الأرض ومغاربها. فنبغ فيها أعلام ظلّت مصنفاتهم خالدة إلى يومنا هذا، بدءا بسيبويه إمام نحاة البصرة ومن والاهم من أئمة، ومرورا بابن الحاجب صاحب التصانيف الفقهية والنحوية؛ انتهاء بابن مالك إمام المدرسة الأندلسية التي امتدّ أثرها حتى المدرسة المصرية، التي ما فتئ علماؤنا ينهلون من نبعها المعين إلى يومنا هذا.

ويصادف حديثنا عن حركة التأليف في القرن السابع الهجري عصر الموحدين، الذي يمثل أصعب عصر مرّت به الأندلس، وذلك بسبب الفتن المذهبية من جهة، وتصارع المسلمين فيما بينهم على السلطة، من جهة أخرى الأمر الذي أدى في النهاية، إلى سقوط مدن عظيمة في أيدي الصليبيين؛ كحاضرة العلم والثقافة مدينة قرطبة[1] ، ولذلك نستطيع القول بأن كثيرا من العلماء رحلوا إلى المشرق، وبالتحديد إلى بلاد الشام، وهذا ما أكده المستشرق بروكلمان[2].حيث الأمور تبدو أقلّ تدهورا، عن مثيلتها الأندلس، ولا يزال العلماء يقصدونها آملين في الأمن والاستقرار.

أما بلاد المشرق عامة، وبلاد الشام خاصة فلم تكن أقلّ حظا من بلاد الأندلس؛ فقد كانت هي الأخرى تئن تحت وطأة الحملات الصليبية، بخاصة بعد وفاة صلاح الدي الأيوبي واختلاف أبنائه من بعده وتقاتلهم على الملك، حتى جرّهم القتال إلى الاستعانة بالعدو الخارجي (الفرنجي)، في مقابل استعادتهم بيت المقدس سنة 626هـ[3].

حيث وقعت هذه المصيبة الكبرى في عهد الملك الكامل من أبناء صلاح الدين الذي لم يتردد في تسليم القدس لملك الفرنج الامبراطور فريدريك، مقابل تقديمه العون ضد أخيه الملك الناصر[4]، مما فتح الباب واسعا أمام عودة الصليبيين لاحتلال القدس وإعطاء شرعية وجودية، من أجل تعزيز القدوم المسيحي إلى بلاد المشرق مرة أخرى. وهذا التحوّل في مسار العلاقات، أدخل المسلمين مرة ثانية ، في دائرة الصراع الإسلامي المسيحي، الذي اشتعلت نيرانه في المغرب والمشرق، ولن ينتهي كما نعلم إلا بسقوط دمشق بيد التتار سنة658هـ، بعد أن سقطت بغداد بيد هولاكو سنة 656هـ وحلب سنة 657هـ[5].

أولا- فن التعليم بين تأليف المتون وتعميم المدارس

إذا كانت الناحية السياسية والاجتماعية، في بلاد الشام وما جاورها من الأمصار رهينة لعوارض الفتن، عليلة بنوازل الزمن، تنام على حملة صليبية وتصحو على غزوة داخلية، فإن ملامح الحياة الأدبية والفكرية والثقافية، حسب ما تذكره المصادر التاريخية، تعكس في ظاهرها صورة لحياة علمية زاخرة، حفل بها القرن السابع؛ بخاصة في مدينة حلب ودمشق، اللتين كانتا حاضرتين للعلم والأدب، باعتبارهما ملتقى العلماء والفقهاء والأدباء، فشهدتا حركة علمية نشيطة بلغت أوجها رواية وقراءة وتأليفا[6].

لقد حظي هذا القرن الذهبي بكوكبة من العلماء الأفذاذ، في اللغة والنحو والفقه والقراءات؛ أمثال: ابن يعيش الحلبي (ت643هـ)[7] صاحب شرح المفصل الذي نال به شهرة واسعة بسبب ما احتواه من آراءٍ نحوية، موسوعية تجمع بين النحو البصري والكوفي والبغدادي[8]، وابن الحاجب المصري(ت646هـ)[9]؛ الذي ما فتئ نجمه يسطع في علوم العربية بخاصة في علم الأصول[10]؛ وابن النحاس الحلبي(ت698هـ)، صاحب إعراب القرآن، وابن الأثير الجزري(ت630هـ) المؤرخ المشهور صاحب موسوعة (الكامل في التاريخ)، والسخاوي (ت643هـ) المقرئ النحوي الذي إليه انتهت رئاسة الإقراء والأدب بدمشق، وابن خلكان (ت 681هـ) صاحب التاريخ الكبير(وفيات الأعيان)، وابن عمرون(ت649هـ)؛ وابن منظور الإفريقي (711هـ) ، وغيرهم كثير من أئمة اللغة والفقه والأدب الذين ملأوا بفكرهم واجتهادهم صفحات عديدة من تاريخ العطاء الفكري، والتنظير المعرفي في شتى مجالات الحياة.

1. المؤلفات النحوية التعليمية

لقد سجل القرن السابع الهجري تناقضات شتى، إذ رغم كثرة الفتن والحروب والبدع والطرق الصوفية، وانحسار العلم في فئة من المجتمع، إلا أن جذوة العلم لم تخب، ولم تفقد التميز بمؤلفات كبيرة، وعقول منيرة أنارت بإشعاعها دروبا مظلمة، وأسعفت بحلمها نفوسا منكسرة، وسنأتي إلى معرفة أهم المؤلفات النحوية التي كان لها الأثر البارز في مسار الدراسات النحوية.

أ. مؤلفات ابن الحاجب(ت646هـ)

يعد النحوي ابن الحاجب المصري الدمشقي « أول فقيه جمع بين فقه المالكية في مصر وفقه المالكية في بلاد المغرب، وكان أول نحوي في مصر نزع بالنحو نزعة فلسفية»[11]، ومردّ ذلك عند الباحثين، يكمن في غلبة نظرته الفقهية الأصولية على النظرة اللغوية النحوية[12] ، لأنه اشتهر بين العلماء في زمانه بالفقه والأصول[13]؛ ولأنه عاش في عصر اتسمت معظم مؤلفاته بصبغة فقهية أصولية من جهة، ومن ناحية أخرى

فقد بدأ ابن الحاجب بالدرس الفقهي المالكي قبل أن يخطو نحو الدرس النحوي ذلك بأنه « رحل إلى دمشق ودرس بجامعها الكبير في زاوية المالكية»[14]، ووصفه الدارسون بأنه كان المرجع الوحيد خلال القرن السابع الهجري للمذهب المالكي في الشام ومصر[15].

وقد حظيت مؤلفاته الفقهية المالكية التي يأتي على رأسها: « جامع الأمهات» و» مختصر المنتهى الأصولي» بإعجاب العلماء وإطرائهم، حتى أن الإمام السبكي قد وصفه بشيخ المالكية في زمانه[16].

وقد ذكر بروكلمان بأن له مختصران على كتاب واحد هو:» منتهى السؤال والأمل في علمي الأصول والجدل» الذي يعتبر عمدة في الفقه المالكي، اختصره في كتابين هما: عيون الأدلة ومختصر المنتهى في الأصول[17]. وهذا هو المنهج الذي عرف به ابن الحاجب ألا وهو التلخيص والاختصار حتى يكون مناسبا لطلبة العلم في المشرق والمغرب على حد تعبير ابن خلدون[18].

إذن لجأ ابن الحاجب؛ مسايرا نهج عصره . إلى تأليف المختصرات وتلخيص المطولات، وقد يكون محقا في ذلك بهدف تقريب المادة العلمية من المتعلم سواء كانت فقهية أم لغوية، على اختلاف مستوياته الفكرية والعقلية، لكن هذا الاختصار قد أخلّ بالفكرة وأوغل في الغموض، حتى أضحت معظم مصطلحات المادة العلمية وكأنها ألغاز، فانبرى جمع من الشرّاح لفك رموزه وتسهيل لغته، ليجد القارئ نفسه أمام دائرة من الشروحات المكثفة تزيد على الثلاثين شرحا[19].

وبهذا المسار يكون الشرّاح قد أعادوا المادة العلمية إلى نبعها الأول الذي انبجست منه، بعد أن طال العهد وضعُفت السليقة، فصارت الحاجة مُلحّة لإعادة تكرار المسائل ثم إعادة بعث الأصول على نحوٍ يمكن معه فهم علوم المتقدمين، فابن الحاجب مثلا قد لخص كتاب الإحكام للآمدي، وهذا الأخير كان قد لخص ما جاء في كتب الأولين التي حوت معظم أصول الفقه قبل أن ينشأ الخلاف المذهبي، وهي: كتاب « البرهان» لأبي المعالي الجويني الأشعري الشافعي الشهير بإمام الحرمين، وكتاب « المستصفى» لأبي حامد الغزالي، وكتاب « المعتمد في أصول الفقه» لأبي الحسين محمد بن علي البصري[20].

هذا فيما يخص أهم المؤلفات الفقهية التي عبّدت الطريق أمام ابن الحاجب. أما الحديث عن مصنفاته النحوية، فإنه يتصدرها مصنفاه "الكافية والشافية"، وهما أيضا كتابان وصفا بأنهما مختصران تعليميان؛ الأول في علم النحو، والثاني في علم الصرف[21]؛ سلك من خلالهما منهجا تعليميا يقرّب به المفاهيم والمبادئ النحوية من أذهان المتعلمين الناشئين[22].

حيث سار ابن الحاجب في تأليفه للكافية، على النهج نفسه الذي عهدناه في مؤلفاته الفقهية، فراح يقتفي آثار الزمخشري من خلال تبنّيه لمحتوى كتابه المفصل[23]؛ على نحو بات يعرف بأنه من مختصراته

النحوية، بالإضافة إلى أنه قد « جمع في الكافية بين تطوير المنهج وشمولها لجميع المقاصد النحوية، فجاءت صغيرة الحجم، نتيجة لحذفه المناقشات الجانبية التي تجلب الصعوبة والملل للمتعلم «[24].

ومن مؤلفاته النحوية التي أظهر فيها قيمة مؤلفات الزمخشري، كتاب « الإيضاح في شرح المفصل «؛ حيث خصصه بشرح مطول لكتاب المفصل، غير أن ما يؤخذ عليه هو عدم تقديمه للكتاب بأية مقدمة، يذكر فيها الأسباب والدوافع التي جعلته يشرح الكتاب،[25]؛ وبالتالي عدم توضيحه للقارئ أين تكمن قيمة الكتاب الحقيقية.

وعليه فقد أراد ابن الحاجب أن تكون له اليد الطولى في الاتجاه التعليمي، فطفق ينظم مما جادت به قريحته، فأتى بنظم الكافية في النحو، ثم تبعه بنظم الشافية في الصرف، واضعا بذلك حدودا تفصل بين العلمين، حتى إذا قويت عزيمته، وعظمت قريحته، جعل الكافية متنا لمنظومة سمّاها بالوافية مع شرحها، متجاوزا بذلك حدود التلقي والتلقين، إلى هدف آخر هو سرعة الحفظ والاستيعاب، لأن المادة المنظومة في(الوافية) سيكون لها تأثير كبير على المادة المسوقة في متن (الكافية)، وفي ذلك يقول ابن الحاجب[26]:

وَبَعْدُ إنّ هذِهِ أُرْجُوزَة فِي علم الإِعْرَابِ أَتَتْ وَجِيزَة
قَصَدْتُ فِي نَظْمِي لَهَا مُقَدِّمَة صَنَّفْتُهَا مِنْ قَبْلُ وَهْيَ مُحْكَمَة
مِنْ أَجْلِهَا سَمّيْتُهَا بِالوَافِية لِكَوْنِهَا وَفَتْ بِنظم الكافِيَة

ب . مؤلفات شهاب الدين القرافي(ت682هـ)

بالإضافة إلى مؤلفات ابن الحاجب التي شكلت القسط الوافر من اهتمام العلماء والباحثين في هذه الفترة، تصادفنا مؤلفات تعليمية أخرى نسجت على هذه الشاكلة، وهي بعيدة عن أعين الدارسين؛ نسجها تلميذه شهاب الدين القرافي الصنهاجي الأصل، البهنسي الديار(682هـ)[27]؛ الذي وصفه العلماء بالإمام الحافظ والبحر اللافظ، إليه انتهت رئاسة الفقه على مذهب مالك في زمانه[28] .

فقد اشتهر بين فقهاء المالكية وعلماء النحو بمؤلفاته المبتكرة التي لم يسبق إلى تصنيفها أحد؛ يأتي على رأسها كتاب **الاستغناء في أحكام الاستثناء**؛ الذي جمع فيه كل ما يتعلق من أمور الاستثناء الوارد في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة[29]؛ وكتاب الخصائص في النحو، الذي تناول فيه ثلاثة وعشرين خصيصة من خصائص الاسم[30]؛ وكتاب القواعد الثلاثون في علم العربية الذي يعد في نظر الدارسين من المختصرات التعليمية في علم النحو[31]؛ وجمع فيه القرافي بعض المسائل النحوية التي تعين الطلاب على تعلم اللغة العربية، مركزا على أهم المواضع التي يقع فيها اللبس وتحتاج إلى مزيد من الشرح والتمثيل.

وقد استهله مؤلفه دون مقدمة يبين فيها أسباب تأليفه وعوارض اختياره وطريق منهجه، فقال مباشرة بعد الحمد لله والصلاة على رسوله الكريم:» أما بعد فأنا أذكر ثلاثين قاعدة سنية في أسرار العربية «[32]؛ بدأه بالقاعدة الأولى التي خصصها للظرف والمجرورات، وأنهاه بالقاعدة الثلاثين التي جعلها للجموع القلة[33].

أما مصنفه (الاستغناء في أحكام الاستثناء)؛ الذي استلهم مادته من شرحه لكتاب الرازي في الفقه(المحصول) في مؤلف وسمه بـ(نفائس الأصول في شرح المحصول)[34] فقد وطّأه بمقدمة عريضة شرح فيها موضوع الكتاب، ومنهج تبويبه بقوله:» أما بعد فإن الاستثناءات العربية أوقع الله تعالى لي فيها مباحث جميلة وقواعد جليلة، أو دعت منها (شرح المحصول) جملا كثيرة، وبقي على خاطري منها ما لا يليق وضعه هناك(...) فأثرت أن أجعلها أمثلة في أبواب هذا الكتاب(...) حتى لا أكاد أترك استثناء في كتاب الله عز وجلّ، فيه غموض إلا لخصته وهذبته.. وكذلك ما حضرني من السنة النبوية»[35]، إذ خرّج مسائل كتابه في الاستثناء في إحدى وخمسين بابا؛ تتابعت مسائله في مباحث دقيقة ومعان شريفة، وقواعد عربية، ومعاقد أصولية، وفوائد فروعية[36].وقد عدّ الدارسون المحاولات المنهجية التي اتبعها القرافي من صميم المنهج التعليمي، المبتكر ولم يسبقه إلى ذاك أحد من المؤلفين، سواء في الفقه أم في اللغة ، ولا أدلّ على ذلك من محتوى مؤلفه العظيم الفائدة، الفريد النوع، كتاب (الذخيرة)؛ الذي يتميز» بدقة التعبير وسعة الأفق وسلاسة الأسلوب وجودة التقسيم والتبويب»[37]، الأمر الذي يضفي عليه طابع الجدة والحداثة، حتى يبدو للقارئ وكأنه مؤلَّف كُتب في العصر الحديث بقلم أحد أعلام الفقه والقانون[38].

وهو الأمر الذي جعل الباحثين يصفونه بصانع الحداثة في التأليف الفقهي واللغوي، عبر حكمته البيّنة في المزج بين الفقه وأصوله، واللغة وقواعدها والمنطق والفلسفة والحساب والجبر والمقابلة في المواطن التي تقتضيها[39]. بالإضافة إلى إفادته الجمة من علوم اللغة وأصولها، كالنحو والحديث في تخريجه للأبواب وتفريعه للفصول.

فيقول بعد أن قدّم لمضمون كتابه وشرح للقارئ خطة منهجه، « وأودعته ما تحتاجه الأبواب من اللغة، في الاشتقاق وغيره، وما تحتاجه من النحو «[40]؛ من ذلك ما قرره في باب الشرط، وفيه ثلاثة فصول، حيث خص الفصل الأول بأدواته،» وهي إنْ وإذا ولو، وما تضمن معنى إن. فإن تختص بالمشكوك فيه وإذا تدخل على المعلوم والمشكوك، ولو تدخل على الماضي بخلافهما»[41].

حيث سلك هذا المنهج البديع الذي تمتزج فيه المباحث الفقهية بالعبارات النحوية في كلّ مصنفه.

2. ضعف الملكة اللسانية وانحسار العربية الفصحى.

أورد المستشرق الألماني يوهن فك في كتابه " العربية " عبارة شديدة نَعت بها النحوي ابن يعيش بقوله:» وحتى النحوي ابن يعيش (1153/553 – 1245/643) يتنازل في شرحه للمفصل عن التظاهر بالأدب، فيكتب في أسلوب عادي ركيك»[42]، فهل يمكننا اعتبار هذه الملاحظة تقييما سلبيا لصورة اللسان العربي في القرن السابع الهجري الذي تجاوز مستويات العامة إلى ألسنة العلماء والأدباء؟

ولعل الإجابة حاضرة عند ابن منظور الإفريقي، إذ يقول في معرض حديثه عن أسباب تأليفه لمعجم لسان العرب:»فإني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية، ... وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعدّ لحنا مردودا، وصار النطق بالعربية من المعيب معدودا. وتنافس الناس في تصانيف التَرجُمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمنٍ أهلُه بغير لغته يفخرون، وصنعته كما صنع نوحٌ الفلك وقومه منه يسخرون»[43].

وبناء على ذلك فإن تقييم المستشرق (فك) كان من الجدية بمكان ، حين عرض بالقول على النحوي ابن يعيش، ووصف أسلوبه بالركاكة، فكلام ابن مكرم قد قطع قول كل أديب، وجاء بشهادة تاريخية لا يمكن أن ترد؛ شهادة تفيد بأن اللغة العربية الفصحى لم تعد هي اللغة المهيمنة، والمسيطرة!!!

وتعد هذه الظاهرة أمرا خطيرا، خاصة أنها ألقت بظلالها على كل فئات المجتمع الإسلامي، فالضعف والوهن اللذين نخرا الملكة اللسانية العربية نقص ليس بالهين، فشتّان بين عربية القرن الأول الهجري، وعربية القرن السادس والسابع، حيث إن التغيير الذي مس الحياة السياسية والاجتماعية ألقى بظلاله على الحياة الثقافية، انعكاسا للتزاوج الأزلي بين الثقافة والمجتمع .

فمن الناحية السياسية أضحت الخلافة الإسلامية في معظمها بأيدٍ أعجمية، منذ أن سيطر السلاجقة[44] على الخلافة العباسية عام 447هـ، إلى أن سقطت بغداد على يد هولاكو سنة 656هـ؛ مما نجم عنه تراجع كبير في النفوذ العربي ويقابله تقدّم كبير في النفوذ الأعجمي، لأنه ومع بداية العصر السلجوقي صارت اللغة الفارسية هي لغة الدولة الرسمية، بينما بقيت اللغة العربية لغة للدين وللفلسفة الكلامية[45].

وهو الأمر الذي أزاح اللغة العربية عن التوظيف السياسي وجعلها مقرونة بالإنتاج الأدبي فحسب، تزامنا مع ريادة لهجات أخرى وجدت مكانا لها في الخارطة اللغوية انسياقا لسؤدد الناطقين بها من أمراء

وسلاطين (أتراك، سلاجقة، أكراد، تركمان، فرس) ، حتى تطور الأمر فيما بعد وأصبح عبارة عن نُضوحٍ علني للهجات أعجمية بعينها، حيث أصبحت ألفاظها تتداول في السياسة وأمور الحكم، مثل كلمة (أتابك) و(الأتابكية) وهو اللفظ الذي كان يطلق ويراد به: الوصي والمربي[46].

وحيال هذا التطور الحاصل في تركيبة المجتمع العربي الإسلامي، تسجل الملكة اللسانية العربية صمودا واضحا جسده شموخها في وجه موجة اللهجات واللغات الدّخيلة، ويرجع الفضل في ذلك إلى القائمين على أمر هذه الأمة، الذين لم يقفوا أمام هذه التحديات اللغوية مستسلمين، وإنما انبروا فازعين يتتبعون بكل دقة وحزم أثر هذا الداء وسبل معالجته؛ وقد انتهجوا في ذلك سبيلين هما:

أ. التصدي بمؤلفات عديدة تُؤلَّف بطريقة متتالية، يعضُد بعضُها بعضًا، عرفت بـ: مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي[47].

ب . إنشاء مدارس تُعلَّم فيها اللغة العربية متصلة بعلوم القرآن والسنّة أي الفقه بصورة عامة.

أما مصنّفات اللّحن أو ما يعرف بالتثقيف اللساني، فإنه يكفي للتدليل على ما نحن فيه التعريج على ما بعض ما كتبه ابن الجوزي(597هـ) وهو من علماء القرن السادس الهجري، في مقدمة كتابه (تقويم اللسان)؛ حيث يقول بعد أن حمد الله وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :» أما بعد فإني رأيت كثيرا من المنتسبين إلى العلم يتكلمون بكلام العوام المرذول، جريا منهم على العادة، وبُعدا عن علم العربية. ورأيت بيان الصواب في كلامهم مُبدّدا في كتب أهل اللغة، وجمْعه يَثقُل عنه المتكاسل عن طلب العلم، فقد أفرد قوم ما يلحن فيه العوام، فمنهم من قصّر، ومنهم من ردّ ما لا يصلح ردّه. فرأيت أن أنتخب من صالح ذلك ما تعم به البلوى»[48] .

فبيّن بما لا يدع مجالا للشك، بأن اللحن واقع لا محالة، وبأن الناس قد نهضوا يقاومون أعراضه الخطيرة، غير أنه انتدب نفسه لجمع ما تفرق من هذه الآراء، وضمّها في مؤلَّف يسير فمن أراد الإقبال والمعرفة فلا حجة له بعد الآن.

وحتى لا نذهب بعيدا في تتبع أغوار هذه الظاهرة، نكتفي بما نقله ابن الجوزي، ومن قبله ابن منظور. وسيجد القارئ المتتبع بأن جهودا عظيمة قد بذلت ووضعت فيه مؤلفات متنوعة، وبحسب القارئ الاطّلاع على أهمها رتبة وأشملها مادة، على غرار ما كتبه الباحث رمضان عبد التواب رحمه الله تعالى؛ في (لحن العامة والتطور اللغوي) الذي صرح فيه بأنه « أول مؤلَّف، يؤرخ لظاهرة اللحن في العربية، ويسبر أغوارها، ويوضح العلل في وجودها «[49]؛ حيث اجتهد في الإحاطة الشاملة بموضوع اللحن، منذ أن ظهر في العهد الإسلامي الأول، متتبعا تطوراته السلبية، وتأثيراته الكبيرة على مبدأ الفصاحة وموضع الإعراب،

ذاكرا أكثر من خمسين مصنفا من مصنفات اللحن؛ أي منذ أن كتب الكسائي(189هـ): ما تلحن فيه العوام إلى آخر من كتب وهو: أحمد أبو الخضر منسي، في كتابه: حول الغلط والفصيح على ألسنة الكتاب.

3. إنشاء المدارس التعليمية

يعود تاريخ أول مدرسة فقهية عربية إلى عام 290هـ/ 902م، وبالتحديد في العراق أو كما يسمّى بلاد ما وراء النهرين[50]، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على رسوخ قدم العرب والمسلمين في معرفة أدوات الحضارة؛ ويأتي على رأسها المدرسة. ولذلك لا نستغرب حين نجد الأمراء والسلاطين، مع نهاية القرن السادس، يسارعون إلى تبني مشروع التعليم العام، عبر إنشاء مجموعة من المدارس، والجوامع المتصلة بحلقات العلم والفقه، والاعتناء بقيمتها؛ من خلال تحسيدها، وجلب مختلف العلماء إليها.

وتذكر المصادر التاريخية بأن فكرة إنشاء المدارس في المشرق لم تكن وليدة العصر الأيوبي، بل إن ما كل ما فعله أمراء هذه الدولة، هو أن قاموا بتجديد البناء وإعادة بعث الحياة العلمية فيها، وقد نوّه المؤرخ ابن العديم بما صنعه الملك العادل نور الدين بن زنكي بقوله:» وشرع نور الدين في تجديد المدارس والرباطات بحلب، وجلب أهل العلم والفقهاء إليها، فجدد المدرسة المعروفة بالحلاويين، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، (...)، فغيّر الآذان بحلب، ومنع المؤذنين من قولهم:» حي على خير العمل « «[51]. ثم يسترسل قائلا:» وجدّد المدرسة العصرونية على مذهب الشافعي، .. ومدرسة النفري، ومسجد الغضائري..»[52] .

ومن المدارس المشهورة أيضا، نذكر المدرسة الأسدية، التي أسّسها أسد الدين شيركوه، عمّ صلاح الدين الأيوبي ومن أمراء الملك نور الدين زنكي[53]، والمدرسة العادلية الكبرى، التي أنشأها الملك نور الدين محمود، الملقّب بالملك العادل، ولكنّه لم يتمَّها، ثم أعاد بنائها ابنه الملك العادل سيف الدين، ولم يتمّها أيضا، حتى جاء ولده الملك المعظم، فيقال إنه رفع قواعدها، وشيّد أركانها وأخرجها تحفة معمارية في عهده حوالي سنة 620هـ[54].

فكانت من المدارس الجامعة، بدأت بالدراسات الفقهية، ثم توسَّعت في عهده، لتشمل القراءات القرآنية وكلّ ما اتّصل بها من علوم اللغة العربية، يأتي على رأسها علما النحو والصرف[55].

وتذكر بعض المصادر، بأن هذه المدرسة تخرَّج منها جمهور كثير، من العلماء والفقهاء درسوا فيها، أمثال ابن خلكان، وابن الصائغ وتقي الدين السبكي، وابن مالك الأندلسي صاحب التصانيف المشهورة، أشهرها درايةً الخلاصة الألفية.

وفي زمن صلاح الدين الأيوبي (569هـ . 589هـ)، انتشرت المدارس بطريقة لم يسبق لها مثيل في عهد الخلافة الإسلامية، حيث أخذ على عاتقه تحقيق غايتين هما:

أ . تكوين طبقة مثقفة من الوعاظ والفقهاء والعلماء، تقوم بتسيير شؤون الدولة، وتضطلع بالمنهج الذي رسمه لها.

ب . محاربة المذهب الشيعي، والقضاء على منابع تمدده في المجتمع العربي الإسلامي.

ولأجل تحقيق هاتين الغايتين العظيمتين[56]، استنفر جميع ما لديه من أسباب القوة الاجتماعية والدينية والمالية، من أجل بناء مدارس حكومية في مختلف الأمصار الإسلامية، بدءا بمصر مركز خلافته، انطلاقا من اعتقاده بأن للمساجد والمدارس دورا فعالا في الحفاظ على جوهر الدين، إضافة إلى أن الفاطميين في ذلك العهد لم تكن لهم رغبة في إنشاء المدارس، لأن التدريس يكون فيها علنيا، ومذهبهم الشيعي يتّسم بالسرية والتقيّة[57].

وفيما يلي سرد لأهم المدارس التي أسسها صلاح الدين بمصر والشام[58]:

. المدرسة الناصرية بالفسطاط عام 566هـ، جعلها وقفا على الشافعية.

. المدرسة السيوفية للأحناف.

. المدرسة القمحية.

. المدرسة الصلاحية أسسها سنة (572هـ).

. مدرسة الإسكندرية، بناها سنة 577هـ.

. المدرسة الصلاحية بدمشق، وجعلها للمالكية.

ولم يكن جهد صلاح الدين منفردا في تشييد المدارس، فقد شُفِعت عماراته بمدارس أخرى، منها المدرسة الفاضلية التي بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني (ت596هـ) سنة 580هـ، وجعلها وقفا على فقهاء المالكية والشافعية[59]، ومنها أيضا المدرسة الظاهرية البرانية والظاهرية الجوانية، وهي مدرسة ودار حديث[60].

وبحلب أيضا تقابلنا المدرسة الظاهرية السلطانية، أنشأها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين(ت613هـ)، وفي زمانه كان تأسيس المدارس قد بلغ أوجّه في حلب[61].

وهكذا يلاحظ الدارس والمتتبع لهذه الفترات الحرجة من تاريخ الخلافة الإسلامية في المشرق، بأنّه رغم الحروب والفتن والصراعات فقد حافظ آل أيوب على النهج الثقافي والمعرفي بمواصلة تطوير المدارس وبنائها، بخاصة في حلب التي كانت ملجأ آمنا استطاعت جلب العديد من العلماء [62]، نظرا لما كانت

تتمتع به من هدوء وسكينة، بسبب خلوها من الفتن والمشاحنات التي كانت بين خلفاء صلاح الدين، فازدهرت فيها الآداب، وأينعت العلوم، ورحل إليها العلماء[63]، فتصدَّروا بها للإقراء، والمدارسة والإفْتاء.

ثانيا . فن التعليم بين نوازع الصناعة ومطالب الحضارة

يتطلب استكمال الحديث عن العوامل والمسببات التي حرّكت مناحي الحياة السياسية والدينية والاجتماعية في المشرق العربي، الاعتراف بانحسار المعرفة بيد مجموعة من العلماء، صنعوا لأنفسهم منهجا مميزا، وطفقوا يسوّقون مؤلفات تعليمية، ذات صبغة تلقينيه، كالأراجيز والمتون المختصرة وشروحها. وفي خضم هذا الجدل العلمي والثقافي، الذي أفرزته متناقضات الحياة العربية، نصل عند أعظم عالم من علماء القرن السابع الهجري؛ إنه إمام النحويين ودرّة اللغويين العلامة ابن مالك الأندلسي صاحب التصانيف النفيسة والأراجيز المشهورة، الذي استطاع بعبقريته وإبداعه تغيير مسار التأليف النحوي في العالم الإسلامي من مجرّد مؤلفات نحوية مكرّرة إلى مصنفات لغوية ونحوية عظيمة النفع والأثر.

1. مصنّفات ابن مالك الأندلسي

لابن مالك في صناعة المتون النحوية الموجهة للمتخصصين باع طويل وشأن رفيع وقد عرّفه العلماء بأبلغ العبارات؛ ونعتوه بأحسن الأوصاف حين قالوا في ترجمته: السائرة مصنفاته مسير الشمس وهي عبارة بسيطة أقل ما يمكن أن يوصف به عالم مثله. ذلك بأن النحو العربي في صيرورته التاريخية قد ازداد غنى ووفرة بما اكتسبه من مؤلفات نحوية ثرة، وبأن ابن مالك قد ساهم في صنع هذا التطور الكبير، لا لكونه ألّف أكثر من ستين كتابا في اللغة والنحو والصرف، بل لأنّه عرف كيف يختار ويميز في الأسلوب والمنهج بين المتعلمين المبتدئين؛ وبين العلماء المتخصصين؛ فأشبع بتعابيرها فضول المتشوقين، مما جعله في أعين العلماء والباحثين، أوسع علماء العرب شهرة في النحو ولا زالت تصانيفه في النحو تتدارس إلى اليوم.

1.1. المصنفات الصرفية واللغوية

أ . المصنفات الصرفية.

تعد مصنفات ابن مالك الصرفية، . وإن كانت قليلة . من المصنفات المتميزة بدقة مصطلحاتها ورغم أنها تأتي في المرتبة الثانية بعد مؤلفاته النحوية، إلا أنها نالت شهرة كبيرة بين العلماء أعضمها؛ (إيجاز التعريف بعلم التصريف)، الذي ذكر في مقدمته بأنه ألّفه خِصِّيصا للملك الناصر صلاح الدين(ت658هـ)، من ذرية صلاح الدين الأيوبي فاتح بيت المقدس؛ فيقول:» فإن التصريف علم تتشوّف إليه الهمم العليّة، ويتوقف عليه وضوح الحكم العربيّة(..) فألّفت ذلك في مجموع سمّيته:(إيجاز

التعريف في علم التصريف)، والباعث على ثني عنان العناية إليه، وشحذ سنان العزم عليه، التشرّف بخدمة مولانا السلطان، الملك الناصر صلاح الدين»[64]؛ ضمّنه كل ما يتعلق بمباحث علم التصريف، وموضوعاته المتصلة ببنية الكلمة، وما لحروفها من زيادة وأصالة، وصحّة واعتلال[65]، مخصِّصا مبحثا سماه (الانتصار لسيبويه)[66].

ثم يأتي مصنفه المميز لامية الأفعال؛ وهي منظومة وضعها ابن مالك، وسمّاها:(أبنية الأفعال في علم التصريف)[67]؛ وشرحها كثيرون، نذكر منهم؛ ابنه بدر الدين، المشهور بابن الناظم، وسمَّاها بـ(خلاصة الأقوال على شرح لامية الأفعال)[68]، والعلامة جمال الدين محمود، المشهور بـ: الإمام بحرق، وسمّاها: فتح الأقفال وحل الإشكال[69]، وحاشية ابن حمدون، على شرح بحرق[70]، وهي حواشي وضعت تذييلا على اللامية.

ومما تجدر الإشارة إليه، في هذا الموضوع هو إغفال الباحث محمد كامل بركات، محقق كتاب (تسهيل الفوائد) . وهو أعظم مصنفاته النحوية . تصنيف هذا الكتاب فقام بوضعه في قائمة مصنفات ابن مالك اللغوية[71]، مع العلم أنه لما وصل إلى مؤلفاته الصرفية، اقتصر على ذكر كتابين فقط، هما: إيجاز التصريف وشرح تصريف ابن مالك، المأخوذ من كافيته، كما قال[72]، ومن مؤلفاته الصرفية أيضا التي جعلها المحقق، في جملة مصنفاته اللغوية، كتاب (تحفة المودود في المقصور والممدود)، و(شرح نظم المقصور والممدود)[73]، وهما عبارة عن منظومتين في علم الصرف؛ ضمَّن هذا الأخير ستة عشرة بابا في حالات المقصور والممدود، الواردة في اللغة العربية؛ والتي يندر أن يجد القارئ لها مثيلا.

ب . المصنفات اللغوية.

أما مصنّفاته اللغوية فإنها على درجة كبيرة من الأهمية لأنها ببساطة تنطوي على أسرار كبيرة في اللغة العربية، وضعها ابن مالك باعتبارها وعاء شاملا لألفاظ اللغة في جميع مستوياتها، قاصدا من ورائها إظهار مقدرته اللغوية وبراعته الفنية في الجمع بين الدراسات النحوية والصرفية واللغوية، منها: كتاب: (ثلاثيات الأفعال وزوائده) وضعه ابن مالك في الأفعال المقول فيها أفْعل وأَفْعِل بمعنى واحد[74]، رتبه وهذبه تلميذه أبي عبد أبي عبد الله شمس الدين الدمشقي المعروف بابن جعوان[75]، على الرغم من أنه جاء مشفوعا بكتاب تلميذه الآخر؛ أبي عبد الله محمد بن أبي الفتح البعلي(709هـ)؛الذي وسمه بـ (زوائد ثلاثيات الأفعال لابن مالك)[76]، حيث يبدو من التسمية بأنه استدراك على كتاب شيخه، بسبب اختصاره

وخلوّه من الشواهد، وأسماء اللغويين، فترتب في النهاية القول: بأن الكتابين صنوان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

فمن حيث المضمون والمحتوى فقد أشاد المحقق بالقيمة المعرفية التي جلبها هذان المؤلفان؛ بقوله: «وعلى الرغم من ذلك فإن كتابيهما ـ مجموعين . أوْفَى ما كُتب في هذا الموضوع، وقد ضمّا أفعالا نُثِرت في كتب اللغة، وتأتّى لهما من الجمع ما لم يتأتَّ لغيرهما»[77]؛ ولذلك صدّره ابن مالك بقوله:» هذا كتاب أذكر فيه . إن شاء الله تعالى . ما تيّسر من ثلاثيات الأفعال المقول فيها أَفعَل أو أُفْعِل بمعنى واحدٍ، مرتّبا على حروف المعجم، فأبدأ بما أوّله همزة، وأختم بما آخره ياء»[78]؛ نحو: أَثَرْتُه أثرا، حيث يبدو من هذه الأمثلة عدم تطابق المضمون مع عنوان الكتاب، وربما يعود ذلك لتصحيف الوراقين والنساخين، أو بسبب اختلاط نسخ المخطوطات.

ومنها أيضا كتاب (الاعتماد في نظائر الظاء والضاد)، وهو من مؤلفاته البديعة التي خصها بجمع الألفاظ التي تتفق في المبنى وتختلف في المعنى[79]، حيث عدّها في المتن ثلاثا وثلاثين كلمة، تجمع بين المعنى والمعنى المغاير، نحو: أضلّ وأظلّ، والضن والظن، والتضفير والتظفير[80].

وتكمن أهمية هذا المؤلف المعرفية كما يقول المحقق، بكونه أول كتاب ينفرد برواية نظائر الألفاظ، زيادة على كونه جاء مدعما بمجموعة من الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية، كما يذكر ابن مالك بقوله: «ولما تهيأ إمكان الفرصة، وتهنّأ إساغة الغصّة، أبرزتها في أحسن المجاسد، وأفرزتها في أزين الشواهد، من الآيات الفرقانية، والأحاديث الغريبية»[81]. حيث بلغت شواهده خمسة وعشرين آية واثني عشر حديثا نبويا.

ومن مؤلفاته اللغوية أيضا التي نالت شهرة كبيرة، كتاب (الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة)؛ وهو من المصنفات القريبة الصلة بالمعاجم، إذ عزم فيه ابن مالك جمع الألفاظ المختلفة في المبنى والمتفقة في المعنى، وجعلها في أبواب متتابعة تؤسس في تضافرها لموضوع الترادف؛ وفي ذلك يقول:» اعلم أن الأدب اسم يشتمل على كثيرٍ من العلوم، فأقربها إليه وأدناها وأدأبها عليه، وأولاها بالتقدم فيه: الاتساع في علم المنطق، بأفصح لسان، وأبلغ بيان. فمن الاتّساع في ذلك أن يتصرّف الأديب في ألفاظه ومكاتبته ومراسلته، ومناجاته، من غير تكريرٍ للأسماء والصفات إذا كان المعنى واحدا «[82]؛ فدلّ قوله على جمعه لألفاظ مترادفة في أبواب متباعدة؛ نحو: **باب الهِبات**: وصلته، ورفَدْتُه، وحَبوْته، وأجديته، وأعطيته، ومنحته، وأوليته، **وباب الفقر**: أعوز، وأقتر، وترب، وأرمل، وأنفد، واختلّ، وأرزح وأكدى، وهكذا بقية الأبواب.

مما يدل دلالة كبيرة على سعة اطلاعه على كلام العرب، وامتلاكه لناصية العربية، إذ بدأ كتابه بالألفاظ السهلة المألوفة، وتدرج بعد ذلك في ذكر الشوارد التي تتطلب تأملا وتدقيقا؛ نحو **باب الأصل**: العُنصر، والمِحْتِدُ، والمغرس، والنِّصاب، والمُنْتضى[83].

وأهم مؤلفاته قاطبة؛ كتاب(إكمال الإعلام بمثلث الكلام)؛ وهو ينضوي تحت ما يسميه العلماء بمثلثات ابن مالك؛ وهي: الإعلام بتثليث الكلام وهو منثور، والإعلام بمثلث الكلام وهو منظوم، وكتاب إكمال الإعلام بتثليث الكلام[84]، حيث جمع فيه مادة غزيرة تتمثل في أزيد من ألفين وسبعمائة كلمة(2700)؛ من كلمات المثلث المتفق معنى والمثلث المختلف معنى[85]، وفي تحديد موضوعه وأهميته اللغوية يقول ابن مالك: « أما بعد: فإن تثليث الكلم فن تميل نفوس الأذكياء إليه، ويُعذَر من قوِي حرصه عليه ... فمن فوائده: انقياد المتجانسات لطالبيها، وامتياز المُلْتَبِسات بكشف معانيها»[86].

ثم يسترسل بعبارات رصينة مُبيِّنا بأمانة علمية هفوات وسقطات من سبقه إلى هذا الفن، بقوله:» وأوّل من عُني بهذا الفن(محمد بن المستنير) لكنّه لم يتأتَّ له منه إلا قدْرٌ يسيرٌ، ما بَرئ مع الإقلال من الإخلال ولا وَقِيَ مع الإهمال رداءة الاستعمال» [87] حيث قصد بقوله (محمد بن المستنير) المشهور بقطرب.

ويلاحظ القارئ كيف انتقد مؤلَّفَه وجعله دون ما يطمح إليه القراء، ليواصل بعد ذلك حديثه عن أصحاب هذا الفن اللغوي بقوله: « وقد عُني بعد ذلك به جماعة من الفضلاء وأكابِرِ الأدباء، أحقُّهُم بالإحصاء، وأوْثقهم في الاستقراء، والاستقصاء، الإمام العلامة، الفقيه، اللغوي، النحوي (أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي) (رحمه الله)، فإنه صنّف فيه كتابا أنبأ عن غزارة فضله، وكاد يُعجز عن الإتيان بمثله، إلا أن في إيراد ما أودعه إطالة لفظ تثبّط عن الحِفْظ، وتفريقا بين الأَشكال يوقع في بعض الإشكال»[88]؛ فينقد مرة أخرى مصنَّفه؛ متعذرا بطول مادته وغموض محتواه مما يحول دون الإلمام بحفظه والإحاطة بفهمه.

وعليه يقدّم بَديله التعليمي الذي اجتهد في تيسير مادته، وتسهيل منهجه، بقوله: « فرأيت أن أبذل جهد المستطيع في نظم شمل الجميع بكتابٍ يحيط بما لا يُطْمَع فيه المزيد عليه، ولا تُسْمَع نسبة خلل إليه، مسمّى لذلك بـ(إكمال الإعلام في تثليث الكلام).فسلكت من الإيجاز أسهل سبيله، وجعلت وضوح المقصود مُغنيا عم دليله، واقتصرت على ذكر الكلمة، مُصرّحا بشرحها، مُفْتتحا بفتحها، مردفا بكسرها ثم بضمّها؛ فلتُعْلم الحركات وإن لم أسمّها «[89].

أما فيما يخص أصول هذا المصنف وموارده اللغوية، فإن ابن مالك، لم يبخل علينا بمصادره، فأسرع إلى ذكر أولها رتبة ثم ما يليها من حيث أهميتها وقيمتها العلمية، فذكر: معجم التهذيب للأزهري، وكتاب الأفعال لابن القطّاع(515هـ)، وهما من المصادر، ثم شفعهما بمعجم ديوان الأدب لأبي إبراهيم إسحاق الفارابي(350هـ)، وجمهرة اللغة لابن دريد (321هـ)، والصحاح للجوهري (392هـ)[90]،ليخلص في الأخير إلى كتاب غريب القرآن والحديث للهروي(401هـ)، وكتاب المثلث للبطليوسي(521هـ)[91].

حتى يعلم القارئ أهمية ما صنّفه ابن مالك، فقد مرّ على أمهات الكتب العربية بغريبها وأفعالها، ومعاجمها، فجاء بعصارة لغوية عظيمة، لخص فيها مادة لغوية بديعة في نسقها، عجيبة في تتابعها، يعجز القلم عن وصفها.

ومعنى فن التثليث كما يشرحه ابن مالك بقوله:» ومحلّ الحركات الواقعِ بها التثليث: أول الكلمة وقد يكون ثانيها أو ثالثَها ـ أو أولها وثانيها . أو أولها وثالثها . ولكون التثليث في الأول غالبا، أستغني عن التنبيه عليه بخلاف غيره، فلا بد من تعيين محل التثليث منه»[92]، حيث يمس هذا التثليث الأسماء وأما الأفعال فالتثليث غالبا ما يمس عينه، ومن أمثلته ما ثلث ولم تختلف معانيه وهو في مقدم الباب، مشروح بفصول[93]، منه ما ثلث أوله نحو: الأتيُّ (بفتح أوله وكسره وضمه) بمعنى: الغريب، والخَبْر(بفتح أوله وكسرها وضمها): العلم، وما ثلث عينه نحو: المأْرَبة (بفتح ثانيه وكسرها وضمها) بمعنى: الحاجة، وما ثلث عينه من الأفعال: أَنَس(بفتح عينه وكسرها وضمها) ضدّ: توحّش، الخ....

وقصارى القول نجد بأن مؤلفات ابن مالك اللغوية، لتنبئ في ظاهرها بأن الرّجل قد جمع في ذهنه كلّ معاجم اللغة العربية، وأحاط بكل مرادفاتها وأضدادها، وغريبها وشواردها وإنه من باب الأمانة الاعتراف بما وصل إليه من سعة وإدراك لمفردات اللغة العربية، التي عليها التعويل وبها الاستعانة، ويكفينا في ذلك ما رواه المقري عن الصفدي أنه قال: « أخبرني أبو الثناء محمود قال: ذكر ابن مالك يوما ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهري في اللغة، قال الصفدي: وهذا أمر معجز، لأنه يحتاج إلى معرفة جميع ما في الكتابين «[94].

خاتمة البحث

ومن خلال ما سبق ذكره نستطيع القول بأن مسار الثقافة العربية الإسلامية أخذ مسالك متنوعة ومختلفة، فظل يترنح بين مدّ الشفاهية المعهودة عند العرب كأمة رائدة في الحفظ والنقل والسماع، وبين متطلّبات الحضارة والحياة الاجتماعية المعقّدة التي فرضتها الصراعات والصدامات المتتالية بين الشرق

الإسلامي والغرب المسيحي، وهو ما يفسّر بجلاء إصرار العلماء على تخزين العلوم العربية في بطون المتون والأراجيز العلمية، لأنّ المخاطر المحدقة بالأمّة كانت كثيرة، ولأن الذاكرة الجماعية بدأت تضعف وتتكاسل بفعل هذه الأوضاع، رأينا كيف نشأت المدارس والجوامع وكل مراكز التعليم، لكي تعوّض هذا الشرخ الحاصل، وإن جنوح العلماء وبخاصة النحويين إلى تضمين القواعد النحوية في شكل متون وأراجيز علمية منظومة، كان الحلّ الوحيد لحفظ تراث الأمّة العربية الإسلامية من الضياع.

ويبدو بأن هذه الطريقة كانت ولا تزال صبغة ملازمة لمؤلفات القرن السابع الهجري، حيث كان الناس يميلون إلى حفظ المتون والشعر، وكل مادة علمية متصلة بعلوم العربية بسبب الأوضاع الاجتماعية والسياسية، المتصلة بالحروب الصليبية، والنزاعات العرقية، وانعدام الأمن والاستقرار.

دون أن ننسى بأن مسار التعليم والتأليف قد أخذ منحى تصاعديا من خلال البدء بالمختصر المفيد ثم التوسع بالشرح والتحليل، حتى إذا أخذت المفاهيم تتعدد، والأصول تتفرع، بسبب كثرة التآليف والتصانيف، صعب على المتعلمين الفهم ، وبعدت الإحاطة، فيتطلب المنهج بعد ذلك إعادة النظر فيما كتبه الأولون، فتختصر المطولات، وتوجز الشروح، فتعود الدائرة كما كانت ونشأت أول مرة، وهو ما حدث فعلا مع نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس والسابع، حيث وجد المتأخرون تراثا ضخما تنوء بحمله العقول، فأخذوا يختصرونه ويودعونه في مؤلفات تعليمية مبسطة.

هوامش:

[1] سقطت مدينة **قرطبة** في الفتنة التي وقعت بين القائدين المسلمين ابن هود وابن الأحمر سنة 630هـ ووقعت بينهم حروب مات فيها خلق كثير، وفتحت الباب على مصراعيه أمام القادة الصليبيين للفتك بمن تبقى والاستيلاء على مدينة إشبيلية. ينظر: **ابن الأبار: كتاب الحلة السيراء، تح: حسين مؤنس، درا المعارف، القاهرة، ج م ع،ط2، 1985،ج1، ص27 وما بعدها**.

[2] ينظر: بروكلمان(كارل): تاريخ الأدب العربي، تر: رمضان عبد التواب، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط2، دت، ج5، ص 275.

[3] ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ: تح: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4، 2003، مج 10، ص481.

[4] ينظر: المقريزي: السلوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ج1، ص 353 وما بعدها.

[5] ينظر في هذه الحوادث: ابن كثير: البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ج م ع، ط1، 1998 ج17، ص356، 395.

[6] ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ـ الشام، دار المعارف، القاهرة، ج م ع، ط2، 1990، ص86 وما بعدها.

[7] ينظر في ترجمته: ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط1، 1991، مج7، ص395.

[8] ينظر: شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ج م ع، ط5 ،1983، ص280.

[9] ينظر في ترجمته: ابن خلكان: وفيّات الأعيان: تح: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت، ج3. ص248.

[10] ينظر: الذهبي (الحافظ): العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1985،ج3، ص255.

[11] عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي، ج م ع، ط1، دت، ص221.

[12] ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

[13] ولد أباه: تاريخ النحو في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2008، ص322.

[14] بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ، ج5، ص308

[15] ابن الحاجب: مختصر منتهى السؤال والأمل في علمي الأصول والجدل، تح: نذير حمادو، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص41.

[16] السبكي طبقات الشافعية الكبرى، تح: عبد الفتاح الحلو وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، ج8، ص67.

[17] بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج5، ص334.

[18] ينظر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، 2001، ج1، ص577.

[19] ينظر: ابن فرحون: كشف النقاب الحاجب من مصطلح ابن الحاجب، تح: حمزة أبو فارس وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص39 وما بعدها.

[20] الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام: تح: عبد الرزاق عفيفي، دار الصميعي، الرياض، م ع س، ط1، 2003، ج1، ص8، 9.

[21] ينظر: بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج5، ص309 وص327.

[22] ابن الحاجب: شرح الوافية نظم الكافية، تح: موسى بناي، مطبعة الآداب، النجف، العراق، 1980، ص95.

[23] ابن الحاجب: أمالي ابن الحاجب، تح: فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار، عمان، الأردن، 1989، ص58.

[24] ابن الحاجب: شرح الوافية نظم الكافية، 1980، ص26.

[25] ينظر: ابن الحاجب: الإيضاح في شرح المفصل، تح: إبراهيم محمد، دار سعد الدين، دمشق، ج ع س، ط2، 2010، ج1، ص1.

[26] المرجع نفسه، ص119، 120.

[27] ينظر في ترجمته: ابن فرحون: الديباج المذهب، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ج م ع، دت.ج1، 236.

[28] المرجع نفسه، ص ن.

[29] ينظر: شهاب الدين القرافي: القواعد الثلاثون في علم العربية، تح: عثمان محمود الصيني، مجلة جامعة أم القرى، ع: 15، 1997، ص189.

[30] المرجع نفسه، ص192.

[31] ينظر المرجع نفسه، ص202.

[32] المرجع نفسه، ص215.

[33] المرجع نفسه، ص242.

[34] المرجع نفسه، ص191.

[35] القرافي: الاستغناء في الاستثناء، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص10 ما بعدها

[36] ينظر: المرجع السابق، ص11.

[37] القرافي: الذخيرة، تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص6، 7.

[38] المرجع نفسه، ص ن.

[39] المرجع نفسه، ص7.

[40] المرجع نفسه، ص38.

[41] المرجع نفسه، 99.

[42] فك(يوهن): العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، تر: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، مصر، 1980، ص237.

[43] ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ج م ع، دط، مقدمة التحقيق، ص13.

[44] محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط6، 2000، ج6، ص205.

[45] ينظر: يوهن فك: العربية دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، ص13.

[46] قاسم عبده وعلي السيد: الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، ج م ع، دت، دط، ص8.

[47] ينظر: أحمد محمد قدور: مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر الهجري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ج ع س، 1996، ص53 وما بعدها.

[48] ابن الجوزي: تقويم اللسان، تح: عبد العزيز مطر، دار المعارف، القاهرة، ج م ع، ط1، 1966، ص 73، 74.

[49] رمضان عبد التواب: لحن العامة والتطور اللغوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ج م ع، ط2، 2000، ص3.

[50] حسام الحزوري: الحركة الفكرية ومراكزها في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2010، ص89

[51] ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص331.

[52] المرجع نفسه، ص332.

[53] ينظر: عبد القادر النعيمي الدمشقي: الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ج1، ص114 ما بعدها.

[54] المرجع نفسه، ص273 وما بعدها

[55] ابن مالك: تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تح: محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة،1968. ص13(مقدمة التحقيق).

[56] ينظر: محمد سهيل طقوش: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 2008، ص 212.

[57] ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

[58] ينظر: المقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت، دت، ج2، ص363.

[59] المرجع نفسه، ص366.

[60] ينظر: عبد القادر النعيمي الدمشقي: الدارس في تاريخ المدارس، ص257 وما بعدها.

[61] أكرم ساطع: المدرسة الظاهرية في حلب، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، ،1965، مج:15، ص47 وما بعدها.

[62] ينظر: كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، تر: أحمد الشيخ، سينا للنشر، ج م ع، ط1، 1995، ص 229

[63] ينظر: القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ط1، 2004، ج1، ص13(مقدمة التحقيق).

[64] ابن مالك: إيجاز التعريف بعلم التصريف، تح: حسن أحمد العثمان، مؤسسة الريّان، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص1، 2.

[65] ينظر ابن مالك: إيجاز التعريف، ص3.

[66] في إلغائه لصيغة (فُعْلَلّ)، أحد أبنية الاسم الرباعي المجرّد. ينظر: المصدر نفسه، ص8.

[67] ينظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج2، ص1536.

[68] بدر الدين بن جمال الدين: خلاصة الأقوال على شرح لامية الأفعال، تح: أحمد بن إبراهيم، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ج م ع، ط2، 2006، ص26 وما بعدها.

[69] ينظر: بحرق (جمال الدين محمود): فتح الأقفال وحل الإشكال بشرح لامية الأفعال، المكتبة العصرية، صيد ـ بيروت، لبنان، 2007.

[70] ينظر: ابن حمدون: حاشية الطالب بن حمدون بن الحاج على شرح بحرق على لامية الأفعال، دار الفكر، بيروت، لبنان، دت (مقدمة الكتاب).

[71] ينظر: ابن مالك: تسهيل الفوائد، ص29(مقدمة التحقيق).

[72] ينظر: المرجع نفسه، ص38.

[73] ينظر: ابن مالك: شرح نظم المقصور والممدود، تح: عمار بن خميسي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2006.

[74] ينظر: ابن مالك: ثلاثيات الأفعال، تح: سليمان بن إبراهيم العايد، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، ج م ع، 1990، ص19.

[75] المرجع نفسه، ص7.

[76] ينظر: أبو عبد الله البعلي: زوائد ثلاثيات الأفعال لابن مالك، تح: سليمان بن إبراهيم العايد، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، ج م ع، 1990، ص95.

[77] المرجع نفسه، ص9.

[78] المرجع نفسه، ص19.

[79] ينظر: ابن مالك: الاعتماد في نظائر الظاء والضاد ويليه فائت نظائر الظاء والضاد، تح: حاتم الضامن، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 2003، ص11.

[80] ينظر: المرجع نفسه، ص22.

[81] المرجع نفسه، ص17.

[82] ابن مالك: كتاب الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، تح: محمد عواد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ص 107، 108.

[83] المرجع السابق، ص145.

[84] ينظر: ابن مالك: إكمال الإعلام بمثلث الكلام، تح: سعد الغامدي، مكتبة المدني للطبع، جدة، م ع س، ط1، 1984، ص48.

[85] ينظر المرجع نفسه، ص55.

[86] المرجع نفسه، ص3.

[87] المرجع نفسه، ص4.

[88] المرجع السابق، ص4.

[89] المرجع نفسه، ص ن.

[90] ينظر: المرجع نفسه، ص85 وما بعدها.

[91] المرجع نفسه، ص93 وما بعدها.

[92] المرجع السابق، ص5.

[93] المرجع نفسه، ص9 وما بعدها.

[94] المقري: نفح الطيب ، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1988، مج2، ص223.